

التواصل بين اللسان واليدين



ولما كانت اللغة وسيلة التواصل الأكثر شيوعاً، فقد كان الاهتمام بما يتلفظ به الإنسان، من أبرز ما ألحّت عليه الثقافات والأديان واللغات، فالكثير من العقوبات والحدود والمخالفات والآثام، إنما ترتبت شرعاً عن مجرد «كلام» يتكلم به الإنسان باطلاً، بدءاً بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة والنميمة وعبارات السُّخْرية والاستهزاء والتنابز بالألقاب وهَلَامٌ - جَرَّاءٌ، كما أنَّ - بدءاً - الخير كله انطلاقاً من كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله» وما يتمُّها من «شهادة أن محمداً رسول الله»، إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان؛ كإفشاء السلام وإرشاد السائل وبذل النصيحة وتعليم الناس... وغيرها من مواقف التَّواصل والتَّفاهم، ولذلك كان إلحاح الدين كبيراً على إصلاح الكلام، ففي صلاح اللسان صلاح حال الإنسان، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (سورة الأحزاب - الآية / 70)، حيث يتبين من خلال هذا التوجيه الرباني، أن الكلمات السديدة مفاتيح إصلاح الأعمال، بل وتغيير القلوب أحياناً، مثلما نقرأ في قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (سورة فصلت - الآية / 34-35)،

وأدب ونثر، وغيرها، والتي كانت عبارة عن معاني في أذهان أصحابها لا وجود مادياً لها، ولولا الأيدي ما وُلِدَت في عالم الحسِّ والنظر، ولا لمُست ولا خُلِدَت ولا سُمِعَت ولا عُرِفَت، إذ هي الابن الشرعي البكر للغة الأيدي، والموسيقى كذلك هي من نتاج الأيدي، بل إنَّ أوَّل لحن موسيقى عزفه الإنسان على وجه الأرض كان هو التصفيق بكفِّيه.

إن لغة الأيدي تقتضي الكثير من التأمل، لأن حياة الإنسان كلها قائمة على عمل الأيدي، والإنسان بسبب الألفة والاعتیاد، يفقد الإحساس بقيمة هذه الأداة وأهمية الرسائل التي تنقلها للآخرين، فتأتي تصرفاته على السَّجية والطبع، دون أيِّ إحساس بالامتنان للخالق، ودون استثمار هذه النعمة الكبرى في شكر الله، بتحسين العمل وتجويده، وعبر الارتقاء بالتواصل في نقل مشاعر المحبة والرحمة، من خلال حرارة المصافحة أو الجود بالخير، علمًا بأن الجود ليس بالضرورة مرتبطًا بما هو مادي محسوس، فقد يكون الجود بالمشاعر أبلغ وأعظم أثرًا في النفوس، فقد قال الحق سبحانه: (وَمَنْ يُوقَ شُجْحَ النَّفْسِ الْعَالِيَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (سورة الحشر- الآية / 9)، ولذلك فإنَّ الكلمة الطيبة صدقة، واليد العليا خير من اليد السفلى.

إنَّنا نستطيع القول بأنَّ بوابة ارتقاء الإنسان، تكمن في إتقان لغة الأيدي، ليكون التواصل أمانًا؛ أخذًا وعطاءً، برًّا وإحسانًا.

التواصل: أمان

يروم التواصل نقل الحوار من الجفاء إلى الرحمة، ومن الغربة إلى الألفة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن أرقى صور التواصل ذلك اللقاء مع المُخالف ومنحه الأمان، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة، في قوله تعالى: (وَإِنْ أَعَدُّوا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (سورة التوبة - الآية / 6)، حيث يلجَّ القرآن الكريم على تداول المعرفة، في قوله (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ)، ويترك للأخر حرية الاختيار بين الرد أو القبول أو الصمت، في أمن تام، ودون أي خوف من قطيعة محتملة مع المخالف أو الدخول معه في حرب ضمنية أو صريحة، وهذا جوهر التواصل الحقِّ، الذي يفتح نافذة التفاهم الجميل، ولا يوجِّه الأحداث نحو منحى معين أو يفرض نتيجة محددة.

إننا عندما نستحضر الأبعاد الخفية في التواصل نستطيع أن ننفذ نحو العمق وندرك جوهر التعارف الإنساني، فلا نتيه في الشكليات أو نشتغل بالمظاهر الخارجية الخادعة، لأنّ - تتبع الزلات ليس من شيم العقلاء، هؤلاء يركّزون على ما يؤلف القلوب ويمنح الأمان، ولا يتم ذلك إلا بحُسنِ التواصل وحُسنِ الظن بالآخرين.

إن بناء عالم رحب ورحيم، لا يقوم على المصلحة المشتركة فحسب، بقدر ما يتأسّس على المحبّة المتبادلة، والإحسان المتواصل، والجُود في المشاعر وفي العطاء الماديّ المفضي بدوره إلى المزيد من التواصل، ومن ثم المزيد من الرحمة، والمزيد من الإنسانية.

أخيراً، إنّ التواصل لا بدّ منه لاستمرار حياة الإنسان، ليس فقط كون الإنسان لا يمكن أن يعيش بصورة انفرادية، فهذا أمر بديهيّ، ولكن ليكون ذلك مُقَدِّمَةً للتعارف والتآلف وتحقيق التقارب والتكامل، ولذلك ينبغي إيلاء مهارات التواصل الأهمية القصوى داخل الأسرة، وفي فضاءات المدرسة، وأماكن الترفيه، وعموم المؤسسات، لتلقين الناشئة والمتعلمين أخلاق الحوار والتفاهم والارتقاء بمستوى التواصل، بوصفه مهارة ناعمة أو ذكاءً اجتماعياً يعكس نضجاً في الشخصية، ويُعبّر عن انخراط إيجابي في عصر التواصل بكل لغاته وأدواته.